العلوم الدينية

بين القرآن وعلماء الإسلام

للأستاذ عطيه الشيخ المفتش بالمعارف

مصادر الإسلام أربعة، هي القرآن والسنة والإجماع والقياس، ومن بين هذه الأربعة ثلاثة خلافية بين الفرق والمذاهب الإسلامية، تفاصيلها في علم الكلام لمن أراد البحث، أما المصدر المتفق على نصه فهو القرآن الكريم، والاختلاف في التفسير لا يضر، إذ القرآن الكريم كنز لا تفنى غرائبه، ولا تنتهي عجائبه. وكلما تقدم العلم، وارتقى الفكر، واتسع مدى المعارف الإنسانية، وزادت تجارب الناس ومشكلاتهم، كلما حدث هذا، وضح ما في القرآن من إعجاز، وتبين للعقلاء أنه كلام رب العالمين «بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله».

على أن هناك تفسيراً للقرآن لا يقبل الشك، وهو سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وقد كانت أخلاقه القرآن، كما حدثت بذلك الصديقة رضي الله عنها. ولهذه السيرة تلاميذ، أسطرها بها ولم يتركوا صغيرة ولا كبيرة إلا أحصوها، وهؤلاء التلاميذ المخلصون، هم نجوم الأمة المنيرة صحابة النبي صلى الله عليه وسلم، انعكست عليهم أضواء شمس القرآن، بعد غروب بدر نبيه، واسترشدت بهم الأمة بعد فقد الصادق الأمين، فهدوها إلى صراط مستقيم، ورفعوا لواء الإسلام في كل حزن وسهل، وطافوا به كل مطرح ونشروه في كل واد، عالمين أنه سلوك يهدي لا جدل يردد، وقلب يصلي لا لسان يلوك، وسنة تتبع لا دروس تتلى، فأعجبت بسلوكهم الشعوب المنحلة، وشغفت بطريقتهم الأرواح المجهدة، واقتدى بهديهم التائبون والمتقلون، ودخل أهل الدنيا في دين الله أفواجا، ولم يمض إلا عشرون عاما حتى كانت العربية لسان كل ممتنع وجنس، والشريعة السمحة قانون كل مقنع ودولة، والمسلمون مثلا أعلى لكل متعلم ومسترشد.

ثم أتخم الإسلام بكثرة ما حل من أوشاب الأمم، ومختلف الحضارات، وما آثر فيه من مشاكل العلوم القديمة، والنحل المخالفة، وما دسه فيه أعداؤه من رجال الأديان الأخرى التي خرت أمام سطوته، ودخلت لعظمته، فخلف من المسلمين خلف بعد أن وقفت فتوحه، متأثرين بكل ما ذكر، وجعلوا من عقيدة الفطرة مشاكل ذرية، ومن غذاء الروح عقداً فلسفية، ووضعوا مصطلحات، واخترعوا علوماً، وتركوا ميدان الحسام وجاهدوا بأسلات اللسان، وهجروا صهوات الخيل، إلى مذاكرات الليل، وطرحوا حسام الكاثرين، إلى جدال غيرهم من المسلمين، فأفسدوا من الإسلام مذاقه، وعكروا صفوه، وقسموا الأمة طرائق، وقطعوها جزائر، وكانوا أنكى على الإسلام ممن خصمه محمد الحسام.

ورضي المستجدون على الإسلام والطارئون عليه من ملوك الأعاجم والترك، بعد أن دالت دولة العرب، بفهم الإسلام على هذا الوضع، لمشابهة العلوم الإسلامية المبتدعة، لما ألفوه من علوم الأديان الأخرى، وثنية وسماوية، فعظموا هؤلاء المبتدعين، ورفعوا شأنهم، ورأوا في تعظيمهم تعظيم الإسلام نفسه. وكيف لا يفعلون هذا، وقد نقله من حولهم من ملوك الروم للقساوسة والرهبان، ومن أعبان اليهود للأحبار، ومن ملوك الهند للكهان؟ أو لعل هؤلاء الحكام الجدد رأوا في هذا السلوك خدمة لعروشهم، بصرف الناس عن خدمة الدين بما خدمه به فقهاؤه الأوائل من جزيرة العرب، إذ أن فهم الإسلام هذا الفهم الأول، يحكم عليهم ما أخذ يحيط بهم من ترف ونعيم ولهو واستماع، ومن كان كذلك يعنيه أن يفصل بين ما لقيصر وما لله

على أن كل إنسان في ذات نفسه في قبول ما يقبل أو رفض ما يرفض، فإن ذلك متعلق بقلبه وبعمله هو. هو أمر بينه وبين الله، بل ونرجو له النجاة ما صدق النية لله في ذلك. لكنه إذا بدأ يدعو غيره إلى ما يشبه أن يكون خروجا على إجماع المسلمين، فإنه عندئذ يعرض نفسه لأخطار لا يقدم على التعرض لها عاقل من الناس.

محمد أحمد الغمراوي

وأن يجعل الدين في المساجد والكتب ، والملك العضود في الدنيا وزهرتها ، وإلا لقام له من يقول : « لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناك بالسيف » ، ومن يقول : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » ، ومن يطبق قول أبي بكر : « أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم » ومن يقول : « والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها ، إنما أهلك بني إسرائيل أنهم كانوا يقيمون الحد على ضعفائهم دون أقويائهم » .

أقول منذ فهم الإسلام هذا الفهم ، ووضع هذا الوضع ، وجعل علوما جدلية ونظريات علمية ، وقواعد جافة ، أخذ بناؤه ينقض حجراً حجراً ، وعموده يميد شبراً شبراً ، وأرضه تنتقص رقعة رقعة ، ووحدته تتجزأ فرقة فرقة ، حتى لم يبق منه إلا الأسماء . أقل بأن البقية الباقية من المسلمين ، الحراص على استرداد مجدهم ، والحفاظ على ما بقي لهم ، أن يعيدوا للإسلام جدته ، ويفروا إلى القرآن ، ويسعهم من الدين ما وسع الصحابة رضوان الله عليهم ، ويتركوا كل هذه التركة الثقيلة التي ما فتئوا يسمونها علوم الدين ؛ والدين منها بريء ، ويضيعون وقتهم في مدارسها ويبنون المساجد والمدارس لها . ثم لا يكون منهم مثل خالد أو عمرو أو عمر ، ولا ينبغ فيهم مثل من نبغ من الأميين ؟ ! لست أول من نادى بذلك الرأي ، بل قد سبقني إليه الغزالي حجة الإسلام ، وبرهن بما لا يقبل الشك على أن ما يسميه الناس علوم الإسلام ليست من الدين في شيء ، وأن معرفتها لا تقرب إلى الله قيد شعرة ، وأن عامة المسلمين أخلص عقيدة وأصفى قلباً وأقرب إلى الله من علماء هذه العلوم . وفي الأثر ما يفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى بعض أصحابه عن الجدال في الدين ، والتنطع فيه ، والخوض في النظريات التي أولها كلام وآخرها خصام ، والسؤال عما لم يرد .

أقول إن الأمة أحوج إلى فهم علوم الدنيا من كيمياء وطبيعة ورياضة وطب وهندسة — الخ ، لأنها علوم تعين على الحياة ، وكسب الرزق ، والقوة وفهم قدرة الله ، وهو ما أمر الدين به ، بل هذه العلوم مأمور بالبحث فيها بنص القرآن ، وما من علم حديث إلا له آيات تحض على البحث فيه ، مع ذكر شيء من مبادئه الأولى ، حتى وقر في ذهن المسلمين منذ القدم أن القرآن الكريم حوى كل علم يمكن أن يبحث فيه السلف أو الخلف ، وفسروا قوله تعالى : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » هذا التفسير . ولولا الإطالة لأحصينا في هذا المقال الآيات التي تحض وتأمر بالتعمق في العلوم الكونية أما ما يسمونه بالعلوم الدينية ، بحسب الوضع الذي صارت إليه ، فليس لها سلطان في الكتاب العزيز أو ماضي السلف الصالح ، ولم يفد منها الإسلام إلا الضعف والتفرق والضياع . فيالبت الذين أهملوا مؤلفات ابن الهيثم ، وزيجات الخيام ، وقانون ابن سينا ، وبحوث بني موسى بن شاكر ، ومسائل جبر والخوارزمي ، ومستحدثات البيروني . يا ليت هؤلاء الذين ضيعوا هذا المجد وحاربوه وجروا وراء الفرق بين المعجزة والكرامة ، والواجب والمندوب ، والاجماع والقياس ، والحيض والاستحاضة . يا ليتهم علموا أن العلوم الأولى أقرب إلى الله من الثانية ، وأدخل في الإسلام منها ؛ إذاً لما أصبح المسلمون عبيداً للأوربيين الذين وقفوا على ذخائر العرب فانفسح أفقهم العقلي ، ووصلوا إلى هذه المخترعات التي أثاروا بها الأرض وعمروها ، وحددوا الأفلاك وخصوصها ، وحللوا العناصر وركبوها ، فدانت لهم الأمم ، وعنت لهم الشعوب .

القرآن الكريم وهو الأصل المتفق عليه الإسلام ، والمصدر القطعي الثبوت والدلالة ، ما تعرض للبحوث التي سموها علوم الإسلام إلا لماماً ، حتى إن الصلاة وهي عماد الدين لم تتبين فيه أوقاتها وطريقتها ، لا استهانة بها ولكن لأن أهم أركانها صفاء القلوب ، وخشية المعبود ، وأما أثوالها وأفعالها فتوقيفية يسيرة المتناول على الذكي والغبي . وكذلك الزكاة ، والصيام ، والحج ، وهي قواعد الإسلام ، يشير إليها القرآن الكريم إشارات خفيفة تاركا كل تفصيل وتوضيح للروح لا للعقل ، وللذمة والضمير ، لا للحدود والأقيسة .

أما القصص التهذيبي الذي أهمل المسلمون طرائقه في التعليم الخلقي فهو أكثر ما في القرآن . وأما الإيمان بالغيب والإسلام لله فهو باب التنزيل . وأما البحث في النفوس وخلقها ، والأجنة ونموها ، والأمم وتاريخها والسماء وما بناها والأرض وما طحاها ونفس وما سواها ، والكون وما يصير إليه ، والرزق وما يحصل به ، والأمم وكيف نمت ولم نمت ، وحسبان الشمس والقمر ،